التعـــس...!

أقصوصة روسية

للأستاذ عبد اللطيف النشار

لست أعرف لماذا يعتقد كثير من الناس أن المقادير تعنى بحظوظ الملوك والأبطال لا بالرجال العاديين ، وأن الرجال العاديين لاشأن للأقدار بهم كأنها لا تلحظهم

لم يكن بطل هذه القصة من الملوك ولا الأبطال ، ولكن الأقدار لم تكن فى عناده أقل حرصاً على الانتصار منها فى عناد « أوديب » الملك ، حتى لقد يظن المرء أنها تركت كل مشاغلها وتفرغت « لإيجور شيمو دانوف » مدة الثلاثين عاما التى قضتها فى حرب معه .

ولد « إيجور » لأبوين غير معروفين لأنه لقيط . وكان مولده فى قرية من قرى سيبريا . وترك عند باب تاجر من أغنياء التجار اسمه « إيجور » ومن ثم أطلق عليه هذا الاسم ، وكان فى الأعوام الأولى من حياته سعيداً تهيأ له من أسباب الرفاهية مالا يتهيأ أوفر منه لابن أمير .

وكان التاجر الغنى وزوجه يقصران عنايتهما عليه حتى استئثارا بذلك حقد الأقارب وحسدهم ، فألبساه الحرائر وأطعماه الشهى وناديا بأحب الأسماء ، وامتلأ الطفل والتف عوده ، ولكن بقيت فيه نعسة بسبب الزيادة فى الطعام . وهكذا ظل طول عمره ممتزج اليقظة بشىء من النعاس

وكان شعره أصفر ناعماً وقوامه ممتلئاً قصيراً . ولكن سمنته مازالت تقل كلما كبر حتى صار هزاله محزناً فى أخريات أيامه

لما بلغ السابعة من العمر مات اللذان تبنياه موتاً شنيعاً إذ تحطمت بهما عربة القطار ، ولم يشك أحد فى أنه ابنهما وكانت هذه النكبة أول حلقة فى سلسلة أحزانه

وكان أول ما فعله ورثة التاجر أن جردوا « إيجور » من ثيابه الحريرية وطردوه من المنزل . ولقد كان الموت مقدوراً عليه فى الطريق لولا أن رحماه آخرين أخذوه من الطريق فأرسلوه إلى الإصلاحية .

ولم يكن الطفل مذنباً ولكنه لم يكن هناك مكان يؤويه غير هذا المكان ، وهكذا كان أمر المقادير . ولقد قبل الطفل هذا الانتقال من السعادة الكاملة إلى الشقاء الكامل بنفس وطنها على المذلة ، وهناك عرف الضرب كما عرف الجوع ، ومع لصا فلم يغضب لشىء من ذلك ولم يتمرد ، بل بدأ يستشعر الحب لهذا المكان ويخلص بقلبه لأولى الأمر فيه . ونسى سعادته الماضية كل النسيان فلم يعد يتألم من حالته الجديدة حتى ولا فى معرض الذكرى

ولعل المقادير رأت فى هذا الهوان شيئاً من السعادة فأنكرته عليه . وذلك أن النار شبت فى الاصلاحية ذات ليلة من ليالى الشتاء فاحترقت المدرة وأبناؤها الثلاثة ونجا « إيجور » بعد أن تعرض للموت . وكان حاضراً فى وقت إطفاء الحريق رجل من رعاة الغنم فأصر على يأخذه معه لأن البناء أصبح غير صالح للسكنى

وقال إيجور لراعى الغنم وهو ذاهب معه : « لعلهم سيجددون بناء « الإصلاحية ؟ » وكان يقول ذلك وهو يبكى فأجابه الراعى لاتخف فان بناءها سيعاد »

وأخذه إلى مدينة « سمارا » ولم يلحظ الدافع الذى حدا بالطفل إلى القاء هذا السؤال . ولقد كان الدافع فى الحقيقة هو عزمه على العودة بعد تجديد البناء . وهذا عمل لم يعمله انسان من قبل ، بل المعهود ان كثيرين قد فروا من الإصلاحية ولم يتطوع أحد بالذهاب إليها . ولكن هذا العزم يدل على مزاجه الخاص الذى ساعده على احتمال ما أصابه من الحوادث . ولقد كان الطفل بغريزته عدواً للتمرد فأنكر على نفسه الفرار من الراعى ليذهب إلى سجن الأطفال ، ولكنه راجع نفسه فى ذلك بأن ذهابه إلى السجن كان بدافع آخر هو الاستسلام للقدر الذى قضى عليه بأن يعيش فى السجن

وفر الطفل من سمارا ثلاث مرات عاد فيها إلى سيبريا . ولكنه ضبط مرتين وضرب ضربا مبرحا ، ونجا فى المرة الثالثة ، ولكنه ضل الطريق فى مجاهل سيبريا . وعلى الرغم من ذلك فان الأخطار والمتاعب لم تغفل عنه فقد كان الذئب يطارده فى الغابة ، وقطاع الطرق يهاجمونه فى الطريق ، والأشرار يعتدون عليه فى

المدن . وكان إيجور يجوع أحيانا ليشترى « ياقة » ويحتمى على ثيابه أن تمزق ولهذا كان يفر من طريق الأشرار . وكان شريفاً على الرغم من إقدامه على سرقة الثياب مادام فى حاجة اليها ولا يملك ثمنها ، ولم يكن يعد هذا ذنباً .

ولما اعتاد هذه الحالة انطفأت نار شوقه إلى الاصلاحية وظل ينتقل من مدينة إلى مدينة حتى إذا بلغ السابعة عشرة وجدناه فى تفليس عاملا فى مصلحة التلغراف وكان مغتبطاً بهذه الوظيفة التى أهله لها حسن ملبسه وظن نظيف الثياب فى الأعوام الثلاثة التى كان فيها مثالا لحسن الخلق والمعاملة . وشعر فيها السعادة التامة الماضية حتى كأنه قد نسيها

ولما بلغ الحادية والعشرين صار من دأبه التغنى بأنشودة غرامية نسمعته فتاة ووهبته قلبها . ومن هذا العهد ظهر سوء الحظ مرة أخرى وكأنه كان مختفياً ليظهر فجأة بشر مرعب ، فلقد ماتت هذه الفتاة بالجدرى . وعلى الرغم من أن إيجور كان مطمئنا لكل هذه الحوادث فقد بدا أثر الحادث الأخير على وجهه فأفقده رواءه وارتسم عليه الهم والألم. وفى خلال هذا العام التحق بالجندية وكان يكره البحر وأسفاره ولكنه عين فى فرقة البحريين فى الأسطول واضطر إلى السفر فى البلطيق فأصيب بمرض من أمراض البحر ، وبدلا من أن يعطف عليه الجنود لمرضه صاروا يضحكون منه . وانقضى عامان كانت السفينة فى خلالها راسية على بعض شواطئ أفريقيا ، وكان أهل هذه الجهة من السودانيين الذين لا يعرف إيجور شيئا من لغتهم ، ولم يكن معه مال ليعيش معهم ولكن هكذا شاء القدر أن يهرب من السفينة ويشرد فى تلك المجاهل

ولم يزل يمشى حتى وصل بعد ثمانية عشر شهراً إلى القاهرة فتجددت له السعادة ، لأن القاهرة خير مكان يستطيع أن يعيش هادئاً فيه . وتزوج واشتغل صانعاً فى أحد المامل ، ولما كان قنوعا فقد اقتصد جزءاً من المال وعزم فى النهاية على فتح حانوت لصنع الأحذية ولكن قبل أن ينفذ هذا العزم اعتقل صاحب المصنع وصودرت أمواله بسبب إفلاسه . وكان إيجور قد حفظ أمواله عنده فصودرت أيضاً .

فى ذلك اليوم هرب إيجور من القاهرة ولم يزل ينتقل من بلد إلى بلد ومن صناعة إلى أخرى كاليهودى التائه ، وركب البحر ثلاث مرات فغرقت السفن ونجا . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل مطمئنا كأن الذى أصابه ليس إلا حوادث عادية يتعرض لمثلها كل إنسان .

وأخيراً وصل إلى نابولى فأخذ يبيع بها السلع متجولا . ومن هناك سافر إلى سويسرا وكانت لغته قد أصبحت مزيجاً من الروسية والعربية والإيطالية . وألف هذا النوع من الحياة وأمهله القدر فصار لا يتعرض لأخطار جديدة وأيسر وبدا اليسار عليه .

ولكنه لم يكن قد تعود هذه الحالة فتاقت نفسه إلى المخاطر ليتعرض لصدمات الأقدار ، فبدا فى نفسه نزوع وحنين إلى ماضيه المستهدف ، وان شئت فقل إنه أصبح فى حالة عقلية قلقة بسبب الراحة التى لم يعتدها . وبالرغم من مقاومته نفسه فقد عجز عن كبح عزمه على العودة إلى مجاهل افريقيا حيث تلفحه الشمس المحرقة ويتعرض لأذى الزنوج والحيوانات المفترسة

وسافر من مرسيليا على ظهر سفينة الى الجزائر فغرقت السفينة على مسافة قليلة من الشاطىء الفرنسى فأعيد الى باريس . ولكن ماالذى يفعله الباريسيون بمخلوق تعس كهذا ...؟

وضعوه فى معرض وكتبوا على قفصه «مخلوق تعس» وصار الأغنياء والأطباء والمفكرون يذهبون ليسمعوا منه قصته ويروا شكل جمجمته الصغيرة وعينيه الضيقتين ليصلوا إلى تعليل لتعاسته . ولكن كان ذلك على غير طائل

واستفاد إيجور من هذا العرض مالا كثيراً فعزم على استئناف العمل وعاد يعمل ويقتات . ولكن القدر أبى عليه أن يستريح فتشبثت بذهنه فكرة لم يستطع إلا تحقيقها وهى أن يعود الى سيبريا فيبحث عن أمه المجهولة ، فعاد ، ولما وصل إلى روسيا كانت الثورة قد نشبت فجردته من أمواله عصابات اللصوص وألقته فى خندق . وأبى عليه حظه أن يموت فيستريح ومن أجل ذلك نجا بأعجوبة واستأنف تجواله ، ولما وصل الى القوزاق اشتغل كاتباً وكادت الراحة تعرف طريقها اليه ولكن التفكير فى أمه لم يتركه . ولذلك سافر إلى سيبريا

ولما وصل إلى البلدة التى ولد فيها كان قد بلغ الثلاثين من العمر ، وفى يوم وصوله وكان جواز السفر الذى ابتاعه من موسكو قد باعه إياه رجل اتضح انه مجرم سياسى محكوم عليه بالاعدام — فى يوم وصوله وقع هذا الجواز فى يد الحكومة فأعدمت «إيجور» بغير تحقيق ... اعتقاداً منها بأنه ذلك المجرم السياسى

وهكذا شنق إيجور فلم يبكه صديق أو قريب ولم يذكره ذاكر ، وهل يذكر الناس من ضحايا الأقدار غير الأبطال والملوك ؟

عبد اللطيف النشار